الباب الأول

منشأ الروس

obeikandl.com

obeikandl.com

[٢٨/ظ] الباب الأول

في منشأ الروس

السَّاكنون الأُول في تلك الأرض الواسعة التي تسكنها الرُوس الآن كانوا «سكيفي وصرماطي» يعني الصقلب[١] وكانت تلك الأراضي غابات ملتفة، وغيطان متسعة تسمى الصحارى، لكن هذا كان من الزمان القديم، وكان هؤلاء الناس مساكين لأنهم كانوا لا يعرفون اللّه، ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام، يعني الصور المصنوعة، ولهذا يُسمون الوثنيين؛ أو عبّاد الأصنام، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يبنون المدن الظريفة، ولا يخيطون مثل هذه البدل التي نلبسها، ويلبسون جلد الوحوش.

وفي الصيف يبنون أخصاصًا بدل البيوت، أو يستترون في الغابات، وفي الشتاء ينحتون في الأرض مسكنًا مشابهًا لما يفعله الآن الكلموك وسكان سيبير[٢]، ويسمونه يورطه- أي دويرة المنتجعين-، وفرقة منهم تتقوت بالصيد والأسماك والخبز تصيد، وتحرث الأرض، وتعيش دائمًا في محل واحد، وتسمى القاطنين، والأخرى يستعملون للأكل لحم مواشيهم السائمة ولبنها، ولا يقيمون بمحل واحد، ولذلك يسمون المنتجعين، ومع ذلك فسكيفي وصرماطي يعرفون عمل السلاح، ومن الخشب اللدن يحنون القسي ويربطونها بالعروق القوية، والحراب الحادة، والسهام يعملونها من العظام القوية أو الشطف والسيوف من الحديد، والمجن من الجلود الغليظة، ولمحبتهم الحروب كانوا شجعانًا، لكن قاسين غالبًا يتحاربون مع جيرانهم ويقتلونهم ويحملونهم [٢٩/و] قربانًا لأصنامهم.

---

(١) والصقالبة صنفان سمر وأدم وهو مما يلي البحر ، ومنهم بيض فيهم جمال وهم في البر. ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان،ص ١٤٥ ، والصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية. ياقوت الحموي ، ج٣، ص ٤١٦.

(٢) هي: سيبيريا.

وقال الروم وأهل رومة في شأنهم: كأنهم لهم فوق الجسم الإنساني وتحت الجسم الخيلي، هذا بسبب أنهم دائما يحاربون على الخيل كأنه طار لهم في الهواء الزغب الأبيض، يعني الثلج، وكأنهم في الشتاء ينقلبون ذئابًا وضبابًا بسبب أنهم يلبسون جلود الذئاب والضباب، وحين استأصلت الحروب سكيفي وصرماطي، ظهر في محلهم الصقلب الذين تشعبت منهم الروس، يظنون أنهم جاؤوا من آسيا، ومع أنهم أيضًا لا يعرفون الله، ويعبدون الأصنام، لم يكونوا قاسين هكذا، وما كانوا يقتلون أسراهم بل يتخذونهم عبيدًا، وبعد عدة سنين يعتقونهم. وكانوا أيضًا شجعانًا يغيرون دائمًا رَجَالة، وعند الحرب يسألون ربهم الموت أو الظفر، ويهجمون على العدو بصياح مفرح وبالمويسيقى، وكانوا مشتغلين بالفلاحة إلا قليلًا، وهي تصلح الناس وتمنعهم من أن يسلموا أنفسهم للبطالة التي هي أم العيوب، وبسبب القوت الغليظ والتعب صار لهم صحة البدن والقوة وجمال الخلقة، وكانوا مستقيمين طيبي القلوب، ولا يكتمون ما في باطنهم، ولا يحلفون أبدًا، بل يقولون: «أنا أستحي إن لم أف بالعهد»، ودائمًا يوفون بوعدهم، وإذا جاء المسافر في قراهم، كل واحد منهم يلاقيه بالترحيب ويكرمه في دويرته ويسخن له ماء الحمام، و يحميه عمن يتعرض له، ولما رأى اليونان كرم الصقلب أحبوا زيارتهم وحملوا إليهم الذهب والبضائع وقايضوهم على ذلك بالمواشي والجلود والغلة والصوف والعسل والشمع وغير ذلك، ومن هذا نشأت التجارة، [٢٩/ظ] صار الصقلب أغنياء، وهؤلاء البياعون يسمون عندهم الضيوف.

ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهم، لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى، بل يحرقونهم على الخشب، في وقت الحرب يحاربن بقرب أزواجهن لا يستهولن الموت، وكانوا يؤدبون أولادهم بالقساوة، ويلزمونهم باحترام الكبار وتوقيرهم؛ بحيث أن الشبان لا يتجاسرون أن يعصوا إن أمروهم ببعض شيء، والشبان لا يدخلون قط في خطاب الرؤساء المتعلق بتدبير المهام، وبلا لوم يفعلون على إرادتهم، ويتميزون بالتواضع والأدب والإطاعة والاجتهاد، وأكثر الكل محبة الوالدين وتوقيرهما، وكانوا إلى هذا الحد مؤدبين بحيث أنهم إذا تلاقوا مع الكبار دائما يرفعون برانيطهم بالأدب كما يفعله الآن الفلاحون الطيبون.

والصقلب كانوا يحبون الرقص والمويسيقى، إن ذهب أحد منهم في الطريق لا يأخذ معه سلاحًا بل يأخذ معه قيثارًا أو صفارة أو زمارة بالقربة أو نحوها من آلات الملاهي كالربابة، وليس فقط في وقت الصلح، بل وفي وقت الحرب عند رؤية الأعداء الكثيرة هم ينبسطون ويغنون الغنوات وينسون الخطر.

أصل ولاية نوفغورد

أصل الصقلب نوڤغورد ڤريع غوستو ميصل روريك أول أمير روسي من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩.

[٣٠/و] الصقلب ينقسمون إلى عدة بطون مختلفة الأسماء منهم: صقلب دونا، وهم السَاكنون على نهر دونا، ولم يكونوا مثل الأُخر في محبة الصلح والشفقة والعفة، بل كانوا في الغالب يُغيرون على جيرانهم، ويأخذون مواشيهم و يخربون بيوتهم، وفي واحدة من هذه الغارات استأصلوا بالنار والسَيف بعض ولايات الروم. وقيصر تلك الأرض سأل الاقتصاص من الخان الشمالي، يعني قيصر أواروف الذين جاؤوا في الروسيا في القرن السَادس من صحراء التاتار في آسيا، لكن بيان الذين حمى نواحي كثيرة من مدة تألب ليعاقب سكان دونا على جفوتهم وغلظهم، ولما جمع جيوشًا عظيمة ذهب أمامهم وصار ينهب و يحرق الأرض ويهلك الناس، وبدلًا عن حماية الشجعان هم تخلصوا من الغارة واستتروا في الغاب، وكثير منهم ذهب في الشمال عند أجناسهم السعيدة الذين يعيشون في نواحي سواحل بحر بلطيق، وبحفظهم عفتهم الأولى وشجاعتهم تخلصوا من (أصر)[1] أواروف. والصقلب البلطيقيون كانوا أكثر تمدنًا من الأُخر، وبنوا مدنًا منها نوغفورد[2] الموضوعة قرب غدير أيلمن ونهر ڤولخوف، ولهذا يسمون النوڤغوديين، ومن قديم كان عندهم قانون بتحكيم الأكبر، فكل عائلة تطيع الجد أو الأب أو العم أو الأخ الأكبر الذي يملكهم ويفصل النزاع بينهم، وله التسلط التام عليهم، وفي الأمور العمومية أيضًا يحكِّمون الرئيس

(١) كذا كتبها المصنف بالصاد.
(٢) كذا كتبها المصنف هنا.

المسمى الأشنج، وفي العسكر ڤوچد أوڤويڤود يعني: ساري عسكر، [٣٠/ظ] وكان الصقلب النوڤغوردیون زمانًا طويلاً أقوياء وأغنياء، لكن حروبهم مع مجاوريهم الذين كدروا عليهم بفتكات عديدة، وبليات عتيدة أضعفتهم في الآخِر جدًا حتى أنهم دخلوا تحت سلطنة واريغ، قوم شجعان يعيشون على بحر بلطيق في سكاندينا التي هي الآن السويد، وفي مدة بعض أزمنة طردوا واريغ ثانيًا خلف البحر، لكن لما رجعوا خالصين منهم وقعوا في ضنك جديد فابتدأوا في النزاع والشقاق والحروب بينهم الناشئة من عدم الطاعة للأكبر والرئيس، وجيرانهم اغتنموا هذه الفرصة وابتدأوا ثانية ينهبون مملكتهم، ويأخذون مواشيهم، ويقودونهم في الآسار.

وبالسعادة كان نوڤغورد في ذلك الوقت الأكبر العاقل صاحب الهمة العجوز غوستو ميصل الذي يحبونه كلهم ويوقرونه جدًا، ولما رجا أن يخلص قومه من ورطة العذاب والضنك الحقيقي، دعاهم في ميدان عظيم، وحقق لهم إثبات قانون الملك يعني اختيار أمير أو ملك، يحكم وحده المملكة، ويقمع البغاة والخارجين و يحميها من المجاورين الوحشيين، فحينئذ النوڤغورديون تحزبت أحزابًا منهم ويس وكريفيج، وأرسلوا رسلًا بنصيحته خلف البحر إلى واريغ، يقولون لهم: أرضنا واسعة وكثيرة السكان، ولكن لا ترتيب فيها، تعالوا املكونا واحكمونا، وثلاث إخوة من أصل واريغ، والروس مسمون [٣١/و] روريك وسيناف، وتروڤور مشهورون بالأصل والنسب وحسن السيرة، جاؤا سنة ٨٦٢ بجيشهم العظيم في أرض الصقلب، وروريك ابتدأ يحكم نوڤغورد وسيناف «بيلي أوزر» يعني البركة البيضاء، في شمالي نوڤغورد الشرقي مملكة ويس وتروڤور أربورسك مدينة كريڤيچ في الجنوب الشمالي من نوڤغورد في مملكة پسكوفسك، فمن ذلك الوقت سميت تلك الجهات الروسيا وأهلها سموا «الروس» والصقلب تمتعوا ثانيًا بالراحة والسعادة ؛ لأن جيرانهم ما بقوا يجسرون أن يغيروا عليهم والبغاة والخارجون كانوا مقهورين، ذات يوم رجل يسمى وادم رجل رديء جدًا، وكان نقم على روريك عدم إباحته النهب والشقاق، فتعصب مع أمثاله من الأوباش ضد أميره، لكن الله عاقبه فقُتل في الحرب، وعُوقب أصحابه كلهم، وبعد مدة قليلة مات سيناف وتروڤور وورث

ملكها روريك، وصار وحده ملك الروسيا الكبير، وحكم سنة ٨٦٤ مدة سبع عشرة سنة أحسن ما يكون.

أصل ولاية كييف

سكولد وديـر، الحرب مع الأروام: قد ذكرنا أن روريك لما جاء، جاء معه جيش عظيم، وفي عددهم كان سكولد وديـر رئيسان من رؤساء العسكر، وهما مولعان بالحرب، فذات يوم لما اجتمعت الأصحاب ذهبا إلى روريك وسألا منه الذهاب للتفتيش على السعادة في الأراضي الأخر، [٣١/ظ] وهو خلاهما يذهبان بالفرح بسبب أنهم كلهم كانوا حربيين وأقوياء فحينئذ ذهبا إلى الجنوب ونهبا البلاد التي في الطريق، ولما صلا إلى نهر دينپر نهر كبير في داخل الروسيا على الجنوب، ويصب في البحر الأسود- رأيا على ساحل النهر مدينة فسألا: لمن هي؟ فأجيبا: بأنها مدينة صقلبية بناها ثلاثة أخوة صيادون، وباسم الأكبر كيا سميت كيُف، وكل الأخوة الثلاثة ماتوا من مدة طويلة، والمدينة تحت يد الحربيين المهولين الخزر تدفع لهم الخراج حالًا، والخزر سكنوا أولًا نواحي بحر كيلان المسمى قديمًا بالخزر الموجود بين الروسيا والفرس والتاتار المستقلين.

فحينئذ سكولد وديـر حكماها، ووعدا أن يحمياها من الخزر، لكن بدل ذلك جهزا السفينة وأجلسا فيها عدة كثيرة من جماعتهما ومن عساكر كييف، وركب الجميع من كييف على نهر دينبر إلى البحر الأسود، وظهرا عند أسوار القسطنطينية تخت الروم، إذ ذاك وحاصراها، والقسطنطينية -كما قدمنا- تخت سلطان المسلمين وقصبة الترك، والروم رأوا الروس أول مرة مع الاستهوال، والعسكر لم يتجاسر أن يحاربوهم استهولوا كثرتهم، والسكان ارتعدوا وظهر هلاك القسطنطينية متحتمًا، لكن كان هناك أسقف يحب الخير يسمى «فوطي» أخذ صورة العذراء التي تضرعت نحوها الناس عند الضنك، ورفعها مع الطرب على الساحل، وابتدأ يدعو بقلب مخلص، وإمام الدين والأعيان والعوام والعسكر جثوا على الركب، [٣٢/و] وسألوا من العذراء الحماية.

فحينئذ «فوطي» غطس الصورة في البحر إلى أن هدأ القلق، وسكن الضجر وبالبغتة ارتفع غيم ثقيل، وتفرقت عسكر السفينة وغرقوا ورجع سكولد وديربعدد قليل من العسكر إلى كييف، وكثير من أهل كييف تركوا عبادة الأصنام واتخذوا دين النصرانية سنة ٨٦٧، لكن ما زال أكثرهم وثنيين إلى زمان مار فلاديمير، الذي عمّد الجميع وأدخل النصرانية في الروسيا سنة ٩٨٨، والأسقف فوطي أرسل لهم قسسًا يعلمونهم الدين والقراءة والكتابة بحروف تهجي الصقلب المخترعة من بعض أزمنة في مدة الراهبين كيريل وبيفوديا اللذين ترجما الإنجيل بين الصقلب في مورافيا، وإنما لم يختر لهم فلاديمير دين الإسلام مع أنه عرض عليه أيضا كباقي الأديان لأنه لما سمع أن دين الإسلام يحرم الخمر، قال الروسي: لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصرّ، وصار ذلك مثلاً، فلذلك ترى العوام يشربون كثيرًا خصوصًا في الأعياد، وترى السكارى في الطريق، وأيضًا المجاورة للأروام قوّت اختيار دينهم لسهولة الارتباط بينهم وبينهم، إذ هم معلموا الروس الدّين والعلوم، ومن أراد بقية التاريخ فعليه بترجمتي لتاريخ الروسيا الصغير لأوستر الوف، وفيما ذكرناه هنا كفاية لمعرفة أصل الروسيا.